الاعـــتراف ...

للأديب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الآنسة درية رستم

كانت مرجريت دي تيرول تعاني سكرة الموت وهي بعد في الواحدة والخمسين من سني حياتها ؛ إلا أنها كانت تبدو لرائيها على الأقل في الخامسة والستين . . . وراحت تتنفس وهي أشد اصفراراً من أدوتها ... تخالج جسدها رعشات هائلة ... شاحبة الوجه ... زائغة البصر ، كما لو كان شيئاً هائلاً يلوح لها . وراحت شقيقتها الكبرى « سوزان » تنتحب ، وهي تكبرها بعشر سنوات ، وكانت جالسة بالقرب من السرير ، وكان بالقرب من فراش المحتضرة منضدة عليها مفرش من فوقه شمعتان مشتعلتان ...

كانتا في انتظار القس الذي كان من واجبه أن يقوم بمباركتها البركة الأخيرة ويقدم القربان المقدس . وكان للمسكن ذلك المنظر المشؤوم لحجرات الموتى ، منظر الوداع الذي لا لقاء بعده ... زجاجات الدواء على كل قطعة من الأثاث ... والملابس ملقاة في كل ناحية من نواحي الغرفة ... مدفوعة بركلة قدم أو بضربة مكنسة ... حتى الأرائك كانت في غير أماكنها المعدة لها . نعم فقد كان الموت المروع ثم مختبئاً منتظراً ...

كانت قصة الشقيقتين تستدعي رحمة القلوب وإشفاقها . . . وراح القوم يروونها من زمان بعيد وهي بعد تستدر عبراتهم

كانت سوزان في ميعة صباها يحبها فتى إلى حد الجنون ... وكانت تبادله الحب ... وإذ لم يبق على زواجهما غير أيام معدودات مات « هنري دي سابير » فجأة ...

ولقد كان يأس الفتاة قاتلاً حتى لقد أقسمت ألا تتزوج أبداً . . . والحق أنها برت بقسمها وعاشت عيشة العوانس ، ولم تشذ عن عادتها مطلقاً

. . . وذات صباح جاءتها شقيقتها . . . شقيقتها الصغرى « مرجريت » ، ولم تكن بعد قد تعدت الثانية عشرة وألقت بنفسها بين ذراعي شقيقتها الكبرى وقالت لها :

يا شقيقتي الكبرى ... إنني لا أريد أن تكوني تعسة ... لا أريد أن تبكي طول حياتك ... أبداً لن أغادرك أبداً ... وأما عن نفسي فلن أتزوج ، وسأظل دائماً إلى جوارك دائماً ... دائماً ... واحتضنتها سوزان متأثرة بهذا الإخلاص من طفلة .

ولكن الطفلة عملت بقولها ، وعلى الرغم من توسلات أبويها وتضرعات شقيقتها لم تشأ أن تتزوج ... ولقد كانت جميلة بارعة الجمال ، وردت كثيراً من الشبان الذين كانوا يلوحون أنهم يحبونها ... ولم تغادر أختها مطلقاً !

* * *

وعاشتا معاً طيلة إقامتهما دون أن تفترقا مرة واحدة ، وظلتا متعاشرتين تربطهما عروة وثقى ... إلا أن « مرجريت » كانت تبدو دائماً حزينة مهمومة . . . أكثر حزناً من أختها ، كما لو كان من المحتمل أن تكون تضحيتها الغالية قد قوضت حياتها ، وراحت تدلف في طريق الشيخوخة بخطوات حثيثة ، ووخط الشيب شعرها وهي لا تزال في الحلقة الثالثة من عمرها ... دائماً تعاني ، كما لو كان خطراً هائلاً يهددها .

وها هي ذي الآن تموت قبل أختها ! ولم تنفرج شفتاها عن كلمة منذ أربع وعشرين ساعة ... فقط قالت عند الومضات الأولى للفجر : هيا ابحثي يا أختاه عن القس ؛ فإنني مشرفة على الهلاك ...

وبقيت بعد ذلك مستلقية على ظهرها . . . تنتفض انتفاضاً مرتجفة الشفتين ، كما لو كانت كلمات هائلة تصعد من أعماق قلبها ، ثم تقف حائرة على شفتيها !

وراحت أختها ، وقد أرمضها الألم ، تبكي بحرقة من خلف السرير ، وهي تردد :

يا مرجو .. يا مرجو التعسة ... يا صغيرتي ، وكانت دائماً تناديها بيا « صغيرتي » ، كما كانت مرجريت تناديها دائماً بيا « أختي الكبرى » ...

وسمعنا وقع أقدام على الدرج . . . وفتح الباب ولاح طفل من الكنيسة ، ومن خلفه قس كهل فى لباسه الكهنوتى . وما إن وقع بصر المحتضرة عليه حتى انتفضت وفغرت فاها ، وتمتمت بكلمات غير مفهومة ... وتقدم منها الأب « سيمون » وتناول يدها وقبلها فى وجنتها ، وقال لها فى صوت حلو النبرات :

— إن الله ليعفو عنك يا طفلتى ... تشجعى ... ها هى ذى اللحظة قد دنت ... تكلمى

... وتمتمت مرجريت التى راحت تنتفض من فرعها إلى قدمها ... وراح مهادها يهتز بتأثير حركاتها العصبية

لتجلسى يا شقيقتى الكبرى ... ولتسمعى ... وانحنى القس يأخذ بيد « سوزان » وهى قابعة كعادتها عند قدم السرير وأجلسها على الفوتيل وأخذ بكل يد من يديه يد كل من الشقيقتين ، وقال :

رباه ... لتبعث فيها القوة . . . ولتنزح عليها رحمتك ...

وشاءت مرجريت أن تتكلم ، فخرجت الكلمات من حلقها الواحدة بعد الأخرى جزئية متقطعة

عفوك ... عفوك يا أختاه ... لتصفحى عنى ... آه لو أنك تعلمين كم كنت أشفق على نفسى من هذه اللحظة ... طول حياتى ... وتمتمت سوزان من بين عبراتها ...

عم أصفح عنك يا صغيرتى ... وقد منحتنى كل شىء . . . وضحيت بكل ما تملكين ... إنك ملاك

ولكن مرجريت قاطعتها قائلة :

خلى عنك

دعينى أتكلم ولا تقاطعينى ... هذا مريع ... دعينى أقل كل شىء حتى النهاية ... دون أن تتحركى . . . إصغى ... إنك تذكرين ... تذكرين هذى ...

وانتفضت سوزان ونظرت إلى شقيقتها التى استطردت قائلة :

يجب أن تنصتى لتفهمى ... كنت فى الثانية عشرة من عمرى حياتى ... فى الثانية عشرة فقط وإنك لتذكرين ذلك جيداً أليس كذلك ؟ ولقد كنت مدللة ؛ كنت أعمل كل ما أريد عمله ... أتذكرين جيداً كيف كانوا يدللوننى؟ أصغى ... حينما جاء لأول مرة كان يحمل باقات نضيرة ونزل من فوق جواده أمام الدرج

ولكنه كان يحمل نبأ إلى والدى ... إنك لتذكرين ... أليس كذلك ؟ لا تقولى شيئاً ، أصغى . . . حينما رأيته ... شعرت كأننى أسرت ، فقد كان جياداً ، فاتن الجمال ... وظللت واقفة فى ناحية من الصالون طوال الوقت الذى كان يتكلم فيه

وزارنا مرات عدة ، فكنت أحدق فيه ، بكل عينى ... من كل قلبى ... فلقد كنت أكبر من سنى !

وعاد بعد ذلك كثيراً ... ولم أكن أفكر إلا فيه ... وكنت أقول فى صوت خافت :

هذى ... هذى دى سامبير ... وبعد فقد قيل إنه سيتزوج منك ... فأصابنى لذلك ألم ... أواه !

لشد ما تألمت ... لشد ما تألمت !

وظللت ثلاث ليال متتاليات دون أن يزورنى الكرى ، وشرع يزورنا كل يوم ، وبعد الظهر ... بعد أن يتناول طبيباً الغداء ... إنك لتذكرين ... أليس كذلك ؟ لا تقولى شيئاً ... إصغى ... كنت تعدين له « الفطير » الذى كان يحبه كثيراً من الدقيق ... أواه ... إننى لأعرف تماماً ، كيف كنت تقومين بذلك !

وبعد أن كان يرشف قدحاً من الخمر ... يقول : كم هو شهى ! وإنك لتذكرين كيف كان يقول ذلك . . . لقد غدوت حقودة ... حقودة ... وكان يوم زواجكما ... يقترب حتى لم يبق عليه إلا خمسة عشر يوماً ... غدوت مجنونة ... فكنت أقول فيما بينى وبين نفسى

سوف لا يتزوج من سوزان ... كلا ، لا أريد ذلك ... إنه سيتزوج منى حينما أكبر . إننى لم أجد أبداً من أحبه هذا الحب . . . ولكن . . . ذات مساء قبل عقد زواجكما بعشرة

أيام كنت تسيرين معه ... فى ضوء القمر ... هناك تحت شجرة السرو ... شجرة السرو السامقة ... . ضمك ... ضمك بين ذراعيه طويلاً ... إنك لتذكرين ... أليس كذلك ؟ ... وكان ذلك محتملاً أول مرة ...

لأننى رأيتك شاحبة الوجه حينما عدت إلى الصالون ... ولقد استطعت أن أرى كل شىء ، ذلك لأننى كنت واقفة هناك على الرصيف ، فتملكنى الغضب ... حتى لو كان فى استطاعتى آنئذ أن أقتلكما ... لما ترددت فى ذلك . قلت فيما بينى وبين نفسى : سوف لا يتزوج من سوزان أبداً ، ولا من أية فتاة أخرى ... غدوت تعسة ... وفجأة وجدتنى أندفع فى طريق الحقد ... الحقد المروع !

أتعلمين ما الذى فعلته إذن ؟ ... : اصغى . كنت رأيت البستانى يعدُّ كُرات صغيرة ليقتل بها الكلاب الضالة ... فكان يسحق الزجاج بحجر ... ثم يضع الزجاج المسحوق فى كرة صغيرة من اللحم ... وأخذت من غرفة والدتى زجاجة صغيرة من زجاجات الدواء وجعلت أحطمها

وأخفيت الزجاج فى جيبى وهو لا يعدو أن يكون مسحوقاً لامعاً ... وفى اليوم التالى ... عند ما قمت كعادتك بعمل « الكعك » ، شققتها جميعاً بسكين ودسست الزجاج فيها ... وأكل هنرى منها ثلاثاً ... وأكلت أنا واحدة ... وألقيت بالست الباقية فى الغدير ... ولقد ماتت الأوزتان بعد ذلك بثلاثة أيام ... إنك لتذكرين ذلك ... أواه لا تقولى شيئاً ... إصغى ... إصغى ... أنا وحدى التى لم تمت ...

ولكننى كنت دائماً مريضة مدنفة ... إصغى ، لقد مات ... إنك لتذكرين جيداً ... إنه ليس فى ذلك شىء حتى الآن ... بل إنه بعد ذلك ... بعد ذلك بكثير غدت حياتى كلها مفعمة بالشقاء ، فكنت أقول فيما بينى وبين نفسى : سوف لا أغادر شقيقتى ، سوف أقول لها كل شىء ... عند ما يدهم أحدنا الموت ولقد كنت أفكر دائماً فى تلك اللحظة المرتقبة . تلك اللحظة التى أعترف لك فيها بكل شىء ...

وها هى ذى قد حانت ! هذا مريع ... أواه ... يا شقيقتى الكبرى ... كنت دائماً أفكر ... فى الصباح وفى المساء ، فى النهار وفى الليل ... أنه يجب على أن أكاشفك بكل شىء ...

لشد ما تألمت ! انصتى . . الآن يتملكنى الخوف ... خوف مروع ، أواه . أخشى أن أراه بعد برهة ... حينما أموت... أتدركين ما أعنى؟ أتدركين ... ها أنذا وقد أشرفت قبلك على الهلاك ، أتضرع إليك أن تصفحى عنى ، لأننى لا أستطيع أن أموت دون أن أتقدم بعفوك إليه ...

اسأله أيها الأب أن يعفو عنى .. أتضرع إليك ... لا أريد أن أموت قبل ذلك

* * *

أخفت سوزان وجهها بين يديها ، ولم تأت بحركة ، وراحت تفكر فى فتاها ، وكيف كان من الممكن أن تتعهده بحبها طويلاً ، وأية حياة جميلة تلك التى كانت لها ، وومض خياله لحظة فى ذهنها ثم لم يلبث أن اختفى فى الماضى البعيد ... مات فتاها! وشقيقتها المزنزان .. كم يمزق موتهما قلبها ... أواه ... صورته ... صورته الحبيبة... إنها لتحتفظ بها فى أعمق نفسها... ثم لم يبق شىء من حياتها كلها ...

وفجأة قام القس ، وصاح فى صوت جهورى واضح :
يا آنسة سوزان ، إن شقيقتك تحتضر

وفتحت سوزان ذراعيها ، ووضح وجهها المخضل بالدموع واندفعت إلى شقيقتها وراحت تقبلها بكل قوتها وهى تتمتم... إننى أعفو عنك ، أعفو عنك يا صغيرتى !

وديعة رستم
معهد التربية بالزمالك

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)